

الخلاصة العامة

الساحات العامة من بين الفضاءات الحضرية الهامة للمدينة، وهي ذلك المكون الذي عرفته المدينة منذ القدم، والذي ظهر في أشكال متنوعة وبوظائف عديدة، إلا أنها اليوم وفي العديد من المدن تتخبط في الكثير من المشاكل التي يعكسها إهمال هذه الفضاءات أو بعضها، ما أفرزته تلك التغيرات الواسعة في ميادين كثيرة كالسياسية والاجتماعية... وتعمير المدن وتصميمها أدى لظهور ساحات متفاوتة الأهمية والاستعمال، مما يطرح تساؤلاً حول دور المصمم في ذلك.

انطلاقاً من هذا طرحنا موضوع الساحات العامة، هادفين لإبراز أهميتها وكذا الوصول إلى مختلف الجوانب التي يمكنها أن تساهم في ترقيتها وجعلها أكثر وظيفية وأهمية في المدينة. لقد تبين لنا أن الساحة تعبر عن مجال حيوي في المدينة، إذ يمكن لها أن تحتوي وظائف حرة ومتعددة ومنظمة أو عفوية، و تتأثر بمختلف التطورات التي تعرفها المدينة أو المجتمع، وأن لكل حضارة أو مجتمع خصوصياته في مجال الهندسة والتعمير أنتجت أشكالاً مختلفة للساحات، كما مكنت الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية لها أداء تطبيقات ووظائف مختلفة.

لقد أخذت الساحة مفاهيم مختلفة حسب التغيرات التي انتابتها وكذا حسب وجهات نظر متباينة تختلف بين المعماري والعمراني وعلماء الاجتماع...، إلا أنها تبقى تعبر عن مكان صمم لهذا الغرض أو نتيجة إجماع عام يصنفه كساحة، ولو في غياب شكل عام لها.

إن الساحة تعبر عن عنصر فضائي أكثر منه مساحة مهيأة من أرض المدينة، ولها علاقة بالمباني المحيطة بها، والتي تعطيها شكلاً معيناً، كما تكتسب أهمية بالغة وذلك لاعتبارها من الحلول المثلى لمأ الفراغ الكائن بين المباني، ولكونها حلاً مناسباً في النقاط التي تلتقي فيها مجموعة من الطرق، كما تتسم الساحة بالمرونة وعدم وجود مقاييس عمرانية واضحة طالما هي تتأثر بتخطيط النسيج العمرانية أو طريقة التعمير في المدينة وكذا شبكات الطرق فيها، إلا أن هذه الأمور لا تعد سلبية كلياً لأنها تفتح الباب أمامها كي تصبح أكثر تنوعاً، وهذا ما يعطي إثراء لها، يدعم ذلك إمكانية احتلالها أماكن مختلفة من المدينة وبأشكال متنوعة، وهذه الأمور

قدمت لنا نماذج كثيرة من الساحات اتسمت بوظائف وتطبيقات مختلفة أشرنا إليها في الفصل الثالث أين ربطناها بعمل المختص أو المهندس في التوفيق بين التصميم والدور.

إن تنوع وغازرة الأدوار التي يمكن للساحة أن تؤديها جعل منها مكانا متميزا، وهذا ما جعل منها فضاء عمرانيا ليس من السهل إقصاؤه من المدينة، وهو الأمر الذي تدعمه حاجة شرائح اجتماعية مختلفة من المجتمع كل حسب طموحاته من هذا المكان.

إن العلاقة المتبادلة بين الساحة والإنسان يمكن أن تنتج من خصائص الساحة نفسها وما تحمله من شكل ومكونات...، وكذا من حالة الفرد النفسية وعمره وجنسه وثقافته...، بل هناك مكونات من الساحة قادرة على خلق انفعالات مختلفة لكل فرد، وهي أيضا متغيرة بين الأفراد، ويمكن أن يظهر ذلك من خلال سلوكياتهم، في حين المعرفة الجيدة لهذا الجانب تمكن الباحث من التنبؤ بسلوكيات الأفراد أو الجماعات، وبالتالي استوجب عليه أخذها بعين الاعتبار في إعداد الساحات، كما يمكن أيضا لشكل ومظهر الساحة أن يشكل صورة راسخة في الدماغ تنتج من خلال مكونات مثل تواجد عناصر طبيعية وفيزيائية كالأشجار والمياه والتأثير الحضري وغيرها، أو عناصر غير فيزيائية تتمثل في التظاهرات والأحداث التي تجري في الساحة، وهذه الصورة تمكن الشخص من توجيه حركته في المدينة، وأيضا الاحتفاظ بحدث أو ذكرى أو مكان في مخيلته، إلا أن هذه النقاط تعبر عن فلسفة معقدة ليس من السهل تعميمها طالما أنها في علاقة مع الفرد نفسه.

من خلال الدراسة العمرانية لساحات مدينة المسيلة يمكن التأكيد أن الساحة فضاء يمكن أن يتأثر بخصائص التعمير والهندسة في المدينة وخاصة بالانتقال من التعمير غير المخطط إلى التعمير المخطط، وما يمكن أن يحمله هذا الأخير من إيجابيات بإمكانها أن تحسن من الوضعيات المجالية للساحة كالتالي تتعلق بشكلها ومكوناتها وتهيئتها وكذا علاقتها بالمحيط المجاور لها، كما أن هذه الجوانب قادرة على خلق انسجام أكبر على مستوى الساحة ومحيطها إلا أن غياب أنماط واضحة ومرجعية للساحات ومعايير خاصة بها وكذا الاهتمام بالمجال المبني أكثر جعلها لا تمثل إلا حلا تعويضا عن الفراغات المتبقية في التصميم، بالإضافة إلى ذلك تعرف بعض الساحات إهمالا من المستعمل وعدم إحساسه بأهميتها باعتبارها فضاء عمومي لا يقع تحت مسؤوليته.

إن العناصر الطبيعية (الأشجار، الأعشاب، المياه...) ذات أهمية كبيرة للساحة، إذ تساهم في جلب الأفراد إليها وذلك من خلال توفيرها الظل والهواء المنعش، وبذلك تخلق مناخا محليا مصغرا أكثر تكييفا وتنوعا، إلا أن هذه العناصر تتطلب العناية الكبيرة، وهو الأمر الذي قد يدفع المصمم التركيز على سيطرة العناصر الاصطناعية كالإسمنت والبلاط مثلا في تهيئة الساحة، مما يزيد في عبء البلدية باعتبارها مسيرة لها.

يظهر أن المدينة في حاجة إلى عدد كبير من الساحات التي تتطلب انتشارها عبر الأحياء ومختلف التجمعات السكنية لاستفادة الجميع منها بشكل عادل وديموقراطي، كما يتوجب عليها الأخذ باعتبارات عديدة كالظروف المناخية والتهئية الجيدة والمتنوعة والتي تستعمل عناصر مختلفة كالنباتات والمياه والتأثير الحضري المختلف...، بالإضافة إلى ذلك على الساحات الاستجابة لمختلف الحاجات التي يمكنها أن توفر راحة المستعمل كالأمن والتنوع في المجال... وأيضاً دون نسيان تصميم الساحة وفق الحياة الاجتماعية للمستعمل، كما إنه وللوصول إلى ساحات مرضية للمستعمل يتطلب الأمر إشراكه مع المهندس أو المصمم في الإعداد لهذه الأماكن، وهذا من خلال الأخذ بأرائه وتجسيدها، وهو الأمر الذي يمكنه أن يقدم لنا نماذج متنوعة من الساحات تختلف باختلاف رغبات المواطن أو المستعمل.

إن غياب نماذج واضحة من الساحات ارجع لعدم وجود ظوابط علمية تركز على القوانين، المعايير، المبادئ وغيرها مما يمكنه أن يتحكم في إعدادها وإدارتها، وهو ما يعكس ضعف سياسات التعمير المنتهجة التي تأخذ الاهتمام بجانب المبني في الدرجة الأولى مقابل إهمال للفضاءات المفتوحة خاصة الساحات.

إن عمل الساحة لا يقتصر في إعدادها فقط وإنما يتعدى إلى مراقبة مستمرة لنوعيتها وحالتها الفيزيائية وكذا استعمال الناس لها، وهي جوانب يمكن أن تهتم بها الهيئات المشرفة على الساحة، إلا أنها تصبح أكثر فعالية إذا ما أشرك المواطن فيها كونه المستفيد الأول من هذه الأماكن.

يمكن اعتبار الساحة بمثابة عضو من جسد يمثل المدينة فان قيل عن هذه الأخيرة أنها تلد وتنمو وتشيخ ولا تموت بل تجدد شبابها صح القول على الساحة هذا أيضاً، وهو الأمر الذي يتطلب جملة من النقاط يجب أخذها بعين الاعتبار نوجزها في ما يلي :

- الساحة تركيبة فضائية تبدي علاقة وطيدة بينها وبين المحيط، لهذا ننصح بتصميمها وفق مخطط يسهل إدماجها مع المباني المحيطة، ومن جانب آخر يجب على هذه المباني أن تعكس صور جمالية من خلال معمارها وألوانها وشكلها... وهو نفس الأمر الذي يجب للساحة أن تعمل على إظهاره، كما يساعدها في هذا الأمر تنوعها في التهيئة والتأثير.
- الساحة عنصر مهم من المدينة لهذا يجب وضع دراسة شاملة للمدينة تسمح بانتشار عدد مقبول منها وفق منهجية عادلة ومرتبطة تنطلق من ساحات على مستوى الأحياء وصولاً إلى الساحة الرئيسية للمدينة.
- ننصح بان تتجز الساحات وفق تهيئة مدروسة ومتنوعة تسمح بتواجد شرائح مختلفة كتحديد أماكن للكبار والأطفال...
- تصمم الساحة وفق مخططات تسمح بالشفافية وهذا لخلق نوع من الرقابة من طرف البعض للآخر، وهو الأمر الذي قد يخفف من انتشار الآفات الاجتماعية بها.
- تصمم الساحة حسب خصوصيات المجتمع الموجهة له سواء من ناحية حجمه، أو عاداته وتقاليده، وهذا الأمر يستدعي من المصمم إنجاز دراسة اجتماعية لمستعملي الساحة ولو في المجال القريب.
- على المهندس في إعداد المخططات التي تحتوي على ساحة الابتعاد قدر الإمكان عن تحويل المساحات المتبقية إلى ساحات، حتى لا يحط من نوعيتها، وللوصول إلى هذا ننصح استعمال الأشكال البسيطة والمنتظمة في التقسيمات الترابية، كما يمكنه أيضاً البلوغ إلى ساحات مدروسة بشكل جيد من خلال وضعها ضمن المبادئ الأولى في التصميم، فيضع الساحة في محور جيد مع الشوارع والطرق وخاصة للعلاقة المتبادلة بينهما، في حين يحاول اختيار التجهيزات التي تحيط بالساحة وهذا دون خلق مشاكل بالنسبة للتجهيزات لأداء مهامها.
- على المصمم التفكير في حيوية الساحة وذلك من خلال المباني الهامة المحيطة التي قد تدير بعض نشاطاتها عليها مثل المراكز الثقافية... كما أن استعمال خدمات صغيرة من استغلال أجزاء من الساحة يزيد من استعمالها.

- على المهندس أو المهيأ إرساء بعض العناصر الطبيعية أو الاصطناعية في الساحة مثل النباتات ونافورات المياه والكراسي وأعمدة الإنارة الجميلة وخلق أماكن مظلمة أكثر...
- ننصح المصمم بوضع تركيبات مبنية تعبر عن خصوصيات المنطقة أو تاريخها أو ثقافتها... وأيضاً لوحات شهرية أو دليل للمدينة وهذا ما يجعلها نقطة استقطاب وتوجيه للسياح ومختلف مستعملي المدينة.
- الساحة فضاء معرض للتدهور بمرور الوقت، لهذا يجب أن تخصص لها عائدات مالية وهذا ليتمكن من تحسينها بين الحين والآخر، ويمكن ذلك من انتهاج عدة طرق من بينها:
- تجهيز الساحة مثلاً بالألواح الإلكترونية المخصصة للإشهار، وهذا حتى يتسنى لها الاستفادة من عائدات الإشهار. كما يمكن وضع غرف للهاتف، الإنترنت وغيرها من الخدمات.
- فرض غرامات مالية على مخالفين بعض القوانين في استعمال المكان.
- يمكن الحصول على الأموال من خلال بعض التظاهرات التي قد تجرى في الساحة كالمعارض الصغيرة على الهواء الطلق وربما حتى الحفلات (الساحة في بعض الدول تجرى عليها بعض مراسيم الزفاف واحتفالات مختلفة....).
- يمكن لبعض ممارسي الهوايات والمهن البسيطة المساهمة في الساحة كالرسامين، ملتقطي الصور، أصحاب الأكشاك...
- يمكن الإسهام في ترقية الساحة كالعناية والنظافة ويكون ذلك من خلال عمليات التوعية بأهمية المكان وانه بمثابة ملك للمواطن وعليهم المحافظة عليه.
- بالنسبة للساحات المتواجدة بين مجموعة من المباني العامة مثلاً فان هذه الأخيرة يوكل إليها بعض إجراءات الحماية والرقابة لها.
- إن من بين مشاكل استقرار الساحات هو غلاء العقار، وكأحد الحلول على المصمم تجسيد فكرة ازدواجية الوظيفة للعقار كأن تحمل الساحة في الجزء التحت الأرضي لها محطات مترو (أمر جسده بعض المدن المتقدمة) مواقف للسيارات، محلات تجارية، خدمات...
- نؤكد على توفير الإضاءة الجيدة للساحة مع محاولة التلاعب بالأضواء وهذا لتمكين من استعمالها لساعات متأخرة من الليل .

• على الساحة أن تبدي تهيئة غير ثابتة وهذا لخلق التنوع والتجدد للمكان، ويمكن ذلك بالتغيير مثلا من أماكن بعض التاثيثات من حين إلى آخر، أيضا التغيير من الألوان وكذلك استعمال الأشجار التي تعطي تغيرا في اللون والشكل من فصل إلى آخر، بذلك تجعل هذه الجوانب من الساحة فضاء أكثر مرونة وتنوعا واستعمالا.

• على المصمم إشراك المواطن في تصميم الساحات حتى يحسسه بأنها جزء من أملاكه وبالتالي عليه المحافظة عليها والإسهام في إنجازها وبطريقة طوعية وهذا ما يجعله يحب المكان.

بالنسبة لاستعمالات الساحة فإنه يمكن خلق تطبيقات واستعمالات في الساحة في ظل الظروف التالية:

• تصمم الساحات وفق مخطط مفتوح يكفل لها الأمن وهذا من خلال ملاحظة ومراقبة البعض للآخر.

• تتجز الساحات على مستوى الأحياء في أماكن تسمح برؤيتها من طرف عدد كبير من المواطنين وهو الأمر الذي قد يطمئن الأولياء على استعمال الساحة من طرف الأطفال.

• تحسيس المواطن بأهمية المكان وضرورة الإسهام في المحافظة عليه.

ختاما نشير إلى أن العديد من التوصيات تبقى دون فائدة ما لم يتم وضعها ضمن أطر قانونية أو في مقاييس علمية، وهو الأمر الذي يستدعي تقنين بعض جوانب استعمال الساحة وكذا وضع معايير خاصة بتصميمها وربما وضع نماذج منها.